الفصل الثالث

★ **في ضرب الأمثال.**

الآيـــات

١ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (البقرة : ٢٦)

٢ - ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد: ١٧)

يضرب الله الامثال للناس لان فى ضربها زيادة أفهام وتذكير وتصوير للمعانى وإدناء لها من الحس . كما قال الله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الزمر : ٢٩)

والله عز وجل يضرب الامثال . وليس كل الناس يعقلها وفى الناس سفهاء وجهلاء . ولذا قال الله عز وجل :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٣)

والعالِمُ من يَعْقل عن الله ويعمل بطاعته ويجتنب سخطه .

أما أهل السفاهة والجهل فَترى الأمثال تُضْرَب فى أخطر القضايا شأنًا وهم يضحكون ويسخرون ويقولون إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت دون نظر فيما ضرب المثل له . يشغلون أنفسهم بأمر العنكبوت والذباب ويتركون ما دُعُوا إليه من عبادة الله وعدم الإشراك به لأن ما دونه لا يخلق ذبابا ومن اتخذ من دونه وليا فقد ركن الى وَهَنٍ وضياع . فتراهم وهم يحثون على التوجه الى الله والاخلاص له يعيشون مع الذباب ولا يرتفعون إلى ما دعاهم القرآن الكريم إليه .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ ﴾ (البقرة : ٢٦)

عن ابن عباس انه لما نزل ﴿ **ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له** ﴾ . فطعن فى أصنامهم ثم شبه عبادتها ببيت العنكبوت . قالت اليهود : أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله المثل بهما فنزلت هذه الآية :

والقول الثانى : ان المنافقين طعنوا فى ضرب الأمثال بالنار والظلمات والرعد والبرق فى قوله . ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا** ﴾ .

والقول الثالث : ان هذا الطعن كان من المشركين . قال القفال : الكل محتمل هاهنا : أمَّا اليهود فلانه قيل فى آخر الآية . ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين الذين**

ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ ـ وهذه صفة اليهود والخطاب بالوفاء بالعهد فيما بعد إنما هو لبنى اسرائيل .

وأما الكفار والمنافقون فقد ذكروا فى سورة المدثر : **﴿ وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء . . . . ﴾** الآية . فأما الذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون والذين كفروا يحتمل المشركين لأن السورة مكية . فقد جُمِعَ الفريقان هاهنا إذا ثبت هذا فنقول : احتمال الكل ههنا قائم . لان الكافرين والمنافقين واليهود كانوا متوافقين فى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مضى من أول السورة الى هذا الموضع ذكر اليهود وذكر المنافقين وذكر المشركين وكلهم من الذين كفروا . ثم قال القفال : وقد يجوز ان ينزل ذلك ابتداء من غير سبب لأنٌ معناه فى نفسه مفيد[1] .

والآية قد شملت كل ما ضرب من مثل فى القرآن «مَثَلاَ مَّا» .

فان «ما» اذا قرنت باسم نكرة أبهمته ابهامًا مَّا وزادته شبوعا وبعدا عن الخصوصية . **﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾** . «الحق » الثابت الذى لا يسوغ انكاره . ذلك أن ايمانهم بالله يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله . وبما يعرفون من حكمته . وقد وهبهم الإيمان نورا فى قلوبهم ، وحساسية فى أرواحهم ، وتفتحا فى مداركهم ، واتصالا بالحكمة الالهية فى كل أمر وفى كل قول يجيئهم من عند الله . **﴿ وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾** . ؟ وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته . المقطوع الصلة بسنة الله وتدبيره ، ثم هو سؤال من لا يرجو لله وقارا ، ولا يتأدَّب معه الأدَبَ اللائق بالعبد أمام تصرف الرب . يقولونها فى جهل وقصور فى صيغة الاعتراض والاستنكار ، أو فى صورة التشكيك فى صدور مثل هذا القول عن الله . هنا يجيئهم الجواب فى صورة التهديد والتحذير بما وراء المثل من تقدير وتدبير.

﴿ يضل به كثيرا ، ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين ﴾[2].

---

(١) الفخر الرازى.

(٢) فى ظلال القرآن.

وعند الاستقصاء ترى الأمثال قد ضربت فى أخطر القضايا شأنا فى قضية العقيدة وما يتصل بها. ونحن لا نضرب لله الأمثال بل الله هو الذى يضرب لنفسه المثل ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك .

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ٧٤)

فان ضرب المثل فيه تشبيه حال بحال. والله جل وعلا منزه عن الشبه والمثل وهو واحد لا مثل له. وهو وحده الذى يعلم كيف تضرب الامثال له وأنتم لا تعلمون ذلك .

ومن تدبر الامثال وهى تضرب للناس رأى فيها من حسن الارشاد والتوجيه ما يحقق تبصرة الإنسان إلى ما يجب أن يكون وابعاده عما لا يصح أن يكون .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج : ٧٣)

فأى تنبيه أقوى للنفس وأبلغ فى صرفها عن التعلق بغير الله من هذا المثل الذى يريها العجز والضعف والهوان ـ لمن تدعوه من دون الله ـ فى صور لا تقبل الجدال والخصام . ضعف الطالب والمطلوب . وعجز العابد والمعبود وهان السالب والمسلوب .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

﴿ ٤٢ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤١ ـ ٤٣)

والأمثال تضرب من الله للناس لإحقاق حق وإبطال باطل .

وأهـل العلم والايمان هم الذين يعلمون أنها الحق فتزيدهم إيمانا وثباتا . وهى تريهم ما عليه أهل الكفر من هوان وباطل وخسران وتجعلهم يشاهدونهم ـ وقد اتخذوا من دون الله أولياء ـ وهم يأوون الى أوهن البيوت ويركنون إلى نسج العنكبوت . بل تريهم الامثـال عجز هؤلاء مع آلهتهم عن استنقاذ شىء مما يسلبهم الذباب . وقد اتخذوهم آلهة طلبا للعزة وابتغاء النصر . فأزدادوا باتخاذهم ضعفا على ضعف وعجزًا على عجزٍ.

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (مريـم : ٨١ ، ٨٢)

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ (يـس : ٧٤ ، ٧٥)

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (الاعـراف : ١٩٧)

والأمثال التى ضربت لبيان قبول الأعمال أورَدِّها يتضح منها أثر العقيدة فى قبول الأعمال أو رَدِّها . فما قام من الأعمال على صدق الايمان والإخلاص لله أثمر وأينع . وما قام على الكفر ورئاء الناس احترق وأحرق أهله والأمثال فى الحالين توضح وتبين وتقرب المعقول من المحسوس .

ففى الأعمال التى قامت على صدق الاخلاص لله تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٥)

وفى المقابل ترى من أشرك فأحْبط عمله أو أنفق فأبطل ما أنفق بمنٍّ أو اذى ترى ثماره وقد احترقت فى وقت الحاجة إليها والعجز عن طلب مثلها :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة : ٢٦٦)

وفى الاعمال التى قامت على الاخلاص لله وابتغاء مرضاته نقرأ قوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦١)

وفى الأعمال التى قامت على الكفر والشرك بالله تقرأ قوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ (ابراهيم : ١٨)

وقولـــــه :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٣٩، ٤٠)

وقد يضرب المثل لبيان حال من يحمل الكتاب ولا ينتفع بما فيه فيأتى المثل مقبحا لفعله بتشبيهه بالحمار الذى يحمل أسفارا .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة : ٥)

وهو مثل لا يضرب لمن فرط من بنى اسرائيل وحدهم بل يصدق على كل من علم ولم يعمل. وجاءته البينات وضل سواء السبيل. وقد يضرب المثل لبيان حال الدنيا وسرعة تقضيها حتى لا يتعلق بها الإنسان تعلق من يرى الإقامة فيها فيرضى بها ويطمئن إليها ويغفل عن آخرته والاستعداد لها .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس : ٢٤)

قد وقد مما ضرب فى القرآن من مثل وكله حق يرشد إلى الحق ويهدى لما هو أقوم. والحق تُدفع به الشبهات وتُقذف الأباطيل ويصفو المعدن الأصيل ويذهب الزبد جفاء ويبقى ما ينفع الناس.

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد: ١٧)

وفيما ضرب له هذان المثلان ثلاثة أقوال.

أحدها: انه القرآن، شبه نزوله من السماء بالماء، وشبه قلوب العباد بأودية تحمل منه على قدر اليقين والشك، والعقل والجهل، فيستكن فيها، فينتفع المؤمن بما فى قلبه، كانتفاع الأرض التى يستقر فيها المطر، ولا ينتفع الكافر بالقرآن لمكان شكه وكفره، فيكون ما حصل عنده من القرآن كالزبد وخبث الحديد لا ينتفع به.

والثانى: انه الحق والباطل، فالحق شبه بالماء الباقى الصافى والباطل مشبه بالزبد الذاهب، فهو وان علا على الماء فانه سيمحق كذلك الباطل وإن ظهر على الحق فى بعض الأحوال فإن الله سيبطله.

والثالث: انه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر: فمثل المؤمن واعتقاده وعمله كالماء المنتَفَعِ به ومثل الكافر واعتقاده كالزبد[1].

وكلام العلماء لا يخرج عن هذه الاقوال الثلاثة التى اجملها ابن الجوزى فى تفسيره.

(١) زاد المسير لابن الجوزى.

يقـول الامـام ابن القيم: «شبـه الله الوحى الذى أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات. وشبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علما عظيما. كواد كبير يسع ماءً كثيراً. وقلب صغير إنما يسع بحسبه، كواد صغير فسالت أودية بقدرها. واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها. وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا. فكذلك الهدى والعلم اذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات، ليقلعها ويذهبها. كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه. فيتكدر بها شاربه، وهى من تمام نفع الدواء. فانه إنما أثارها ليذهب بها. فانه لا يجامعها ولا يشاركها وهكذا يضرب الله الحق والباطل».

ثم ذكر المثل النارى فقال: ﴿ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله﴾. وهـو الخبث الـذى يخرج عنـد سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد، فتخـرجـه النار وتميزه، وتفصله من الجوهر الذى ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء. وكذلك الشهوات والشبهات يرميها العلم والهدى من قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها، كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث ويستقر فى قرار الوادى الماء الصافى الذى يستسقى منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم. كذلك يستقر فى قرار القلب وجذره الايمان الخالص الصافى الذى ينفع صاحبه وينتفع به غيره. ثم قال رحمه الله «ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما والله الموفق[1]».

وقال الإمام ابن كثير: اشتملت الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه والباطل فى اضمحلاله وفنائه فقال تعالى: ﴿ **أنزل من السماء ماءً** ﴾. أى مطرا ﴿**فسالت أوديةً بقدرها**﴾ أى أخذ كل واحد بحسبه فهذا كبير وسع كثيرا من الماء وهذا صغير فوسع بقدره وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها فمنها ما يسع علما كثيرا ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿**فاحتمل السيل زبدا رابياً**﴾ أى فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زبد عال عليه هذا مثل. وقوله ﴿**ومما يوقدون عليه**

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم جمع: محمد اويس الندوى، وأمثال القرآن لابن القيم: تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد.

فى النار ابتغاء حليةٍ أو متاع﴾. الآية هذا هو المثل الثانى وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية أى ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدا فيجعل متاعا فانه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه **﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾**. أى إذا اجتمعا لاثبات للباطل ولا دوام له كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل ولهذا قال: **﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً﴾** أى لا يُنْتَفَعُ به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شىء ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ولهذا قال: **﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾**. ثم قال: وقد ضرب سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريا ومائيا وهما قوله: **﴿مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله﴾** الآية. ثم قال **﴿أو كصيبٍ من السماءِ فيه ظُلمات ورعد وبرق﴾**. الآية. وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين (احدهما) قوله: **﴿والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ﴾** الآية، والسراب إنما يكون فى شدة الحر ولهذا جاء فى الصحيحين فيقال لليهود فى يوم القيامة فما تريدون ؟ فيقولون أى ربنا عطشنا فأسقنا فيقال ألا تردون؟ فيردون النار فاذا هى كسراب يحطم بعضها بعضا ثم قال تعالى فى المثل الآخر: **﴿أو كظلماتٍ فى بحر لجىٍّ﴾**. الآية. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» فهذا مثل مائى وقال فى الحديث الاخر الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلكم

مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها» وأخرجاه فى الصحيحين أيضا. فهذا مثل نارى[1].

ونلاحظ أن الأمثال وهى تضرب للناس فى الكتاب والسنة تلمس ما يتصل بحياتهم فلا يأتى المثل بعيدا أو غريبا. فالناس يعرفون ما يؤديه الماء فى حياتهم وما يكون من شأنه حين ينزل من السماء وحين يصيب أرضا. وما يكون من الأرض فى قبولها للماء وإخصابها به أو إمساكها وحفظها له. أو إبائها أن تمسك أو تنبت. يرى الناس ذلك بأعينهم. والمثل يخاطبهم بما يرون ويعرفون ليدركوا كنه الأشياء وحقيقتها ويقفوا على آثارها ونتائجها. فلا تكون المعانى التى يراد بيانها بعيدة عن حسهم أو معزولة عن حياتهم. بل يُرَى المعقول فى المحسوس وتشاهد العبرة فى الآثاروالنتائج فلا يغيب معنى عن واقع ولا تتخلف عبرة عن منظور مشاهد فتنهض الحياة بمبناها ومعناها ولا تتخلف فضائلها عن عطائها بل تصان بمعالى الصفات ومكارم الأخلاق. ويتحقق الاعتدال فى فطرة الانسان بين مطالب جسده وفضائل روحه وبين العمل لدنياه وابتغاء آخرته. وبذا يتربى الانسان التربية المثلى التى لا تلتبس فيها المفاهيم أو تنحرف المقاصد أو تخفى العواقب والنتائج بل تظل التبصرة والذكرى تعمل عملها فى مأكله ومشربه وليله ونهاره وحله وترحاله. تظل التبصرة والذكرى ملازمة له في نفسه وفي الآفاق من حوله فلا يأتيه متاع الحياة خاليا من المعنى أو منفصلا عن التبصرة والذكرى.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ (طه: ٥٣، ٥٤)

﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةٌ بقدرها﴾.

«إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم فى طريقه غثاء، فيطفو على

(١) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير.

وجهه فى صُورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء فى بعض الأحيان. هذا الزبد نافش راب منتفخ. ولكنه بعد غثاء. والماء من تحته سارب ساكن هادىء. ولكنه هو الماء الـذى يحمـل الخير والحياة.. كذلك يقع فى المعادن التى تذاب لتصاغ منها حِلْيَةٌ كالذهب والفضة، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص فان الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن فى نقاء. ذلك مثل الحق والباطل فى هذه الحياة فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيا طافيا. ولكنه بعد زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة له ولا تماسك فيه. والحق يظل هادئا ساكنا. وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات. ولكنه هو الباقى فى الأرض كالماء المحيى والمعدن الصريح ينفع الناس ﴿**كذلك يضرب الله الأمثال**﴾[1].

واشارة «كذلك» إلى التمثيل السابق فى جملة ﴿**أنزل من السماء ماء**﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله الأمثال. وهو المقصود بهذا التذييل والاشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الافهام إلى حكمته وحكمة التمثيل وما فيه من المواعظ والعبر[2].

(١) فى ظلال القرآن.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.